

إشكالية تطور المصطلح الواحد مع تطور دلالة المفهوم بالمغرب الإسلامي في عصره الوسيط من خلال مجموعة مصادر مختارة "مصطلح العامة أنموذجاً"

أ.زينة جوادة

جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، zina.djouada@univ-biskra.dz

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى التركيز على قضية المصطلح في الكتابة التاريخية، والتنبيه إلى إشكال تطور المصطلح الواحد مع تطور مفهومه من خلال نماذج مختارة من مصادر المغرب الإسلامي خلال فترته الوسيطة، من منطلق أن الكتابة التاريخية مرتبطة أشد الارتباط باصطلاحات كل عصر من العصور التاريخية، حتى نتمكن من تدوين تاريخه على وجهه الصحيح، ذلك أن التطور المفاهيمي للمصطلحات انعكاس لتجدد تجارب الشعوب وقيمهم الاجتماعية وكذا الحضارية.

- الكلمات المفتاحية:

المصطلح، الدلالة، المفهوم، المغرب الإسلامي، كتابة تاريخية، طبقة العامة.

Abstract

The purpose of this study is to focus on the issue of terminology in historical writing, and through the evolution of the concept of the source selection model from the Islamic Magherb awarning of the terminology development in his middle stage, I think historical writing is the most relevant reform in each era of history in the right perspective therefore, the concept of development terms reflects people's experience renewal, their social values and civilization.

- key words :

Term, Connotation, Concept, Islamic Magherb, Historical writing, Assembly layer.

- المقدمة:

تقييد المصطلحات وضبط دلالتها على وجهها الصحيح ، أمر ملّح و ضروري لكتابة تاريخية موضوعية ، ذلك أن المصطلح يقف عند كل حقبة تاريخية ، متأثراً بكل نقلايتها الحضارية ، و سماتها الثقافية ، و بناءً على هذا قلما تصمد الكثير من المصطلحات في الإحتفاظ بدلالاتها المفاهيمية ، و قد يطرأ عليها التغيير و التحوير ، فتدل على خلاف ما دلت عليه في عصر سابق ، و قد تتشعب في دلالتها ، و هو ما يمكن أن نصطلح عليه " بالمصطلح المطاطي " ، و الباحث المؤرخ كثيراً ما يتصادف مع هذا الإشكال الذي يخلق تضارباً في رصد الحقائق التاريخية بين الباحثين أنفسهم ، و هو نابع أساساً من عدم ضبطه للمصطلح في حد ذاته ، و من هنا استجلينا أهمية دراستنا التي جاءت موسومة بـ " إشكالية تطور المصطلح الواحد مع تطور دلالة المفهوم بالمغرب الإسلامي في عصره الوسيط من خلال مجموعة مصادر مُختارة " مصطلح العامة أنموذجاً " ، متبعين في ذلك منهج تحليلي ، استدلائي و مقارن ، و خطة بحث مهيكلية على النحو التالي:

- المقدمة .

أولاً : في معاني الكلمات المفتاحية للدراسة .

- الدلالة .

- المصطلح .

- المفهوم .

- العامة .

ثانياً : مصطلح العامة من خلال نماذج مختارة من مصادر المرحلة (تطور المصطلح الواحد مع تطور الدلالة) .

ثالثاً : أثر التطور المصطلحي و الدلالي للمفاهيم في الكتابة التاريخية .

- خاتمة و نتائج البحث .

أولاً : في معاني الكلمات المفتاحية للدراسة .

- الدلالة :

(أ) لغة :

إبانة الشيء بإمارة تتعلّمها و الدليل : الأمانة في الشيء ، و هو بين الدلالة و الدلالة (ابن فارس ، ص 259). و دَلَّ فُلَانٌ إِذَا هَدَى . و قد دَلَّه على الطريق يَدُلُّهُ دَلَالَةً و دِلَالَةً ، و دُلُّوهُ ، و دَلَّتْ بهذا الطريق : عَرَفَتْهُ ، و دَلَّتْ به أدُلُّ دَلَالَةً ، و أدُلْتُ بالطريق إذلالاً (ابن منظور ، ج 15 ، ص 1414).

(ب) اصطلاحاً :

عرفها البعض بأنها "دراسة المعنى" أو "العلم الذي يدرس المعنى" أو "ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى" أو "ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرًا على حمل المعنى" (أحمد مختار عمر، 1998، ص، 11).

أطلقت عليه عدّة أسماء في اللغة الإنجليزية أشهرها كلمة semantics، أما في اللغة العربية فيطلق عليه البعض "علم الدلالة" - بفتح الدال و كسرهما -، وبعضهم سماه "علم المعنى"، و أيضا "السيمانتيك" أخذًا من الكلمة الإنجليزية أو الفرنسية (أحمد مختار عمر، 1998، ص، 11).

و هدف علم الدلالة الوصول إلى المعنى، لذا نجده يهتم بمضامين الكلمات في حالاتها الإفرادية المعجمية أي بيان معاني المفردات بمعزل عن السياق، كما و يهتم بالحالات التركيبية السياقية، و التي يندرج فيها معاني الجمل و العبارات و آلياتها الداخلية التي هي أساس التواصل و الإبلاغ (نادية معاتقي، 2015، ص22).

- المصطلح :

(أ) لغة :

الصَّلَاحُ ضد الفساد، صَلَحَ يَصْلُحُ و يَصْلُحُ، صَالِحًا و صَلُوحًا، و الإصلاحُ: نقيض الإفساد، و أصلح الشيء بعد فساده؛ أقامه، و الصُّلُحُ: السِّلْمُ، و قد اصْطَلَحُوا و صَالَحُوا و اصْلَحُوا، مشددة الصاد، و الصَّلَاحُ بكسر الصاد: مصدر المُصَالحة، و أَصْلَحَ ما بينهم و صَالَحَهُمْ مُصَالِحَةٌ و صِلَاحًا (ابن منظور، ج15، ص2479).

(ب) اصطلاحًا :

قيل "المصطلح هو لفظ (مركب أو بسيط) أو مركب لفظي الغاية منه تسمية الأشياء أو تعريفها أو تحقيقها عن طريق إسناد أحكام أو قيم لها من الفكر و الواقع" (إدريس الطراح، 2000، ص94).

هذا و نشير أن لفظة مصطلح أخذت مجراها في الإشتقاق حتى أصبحت "اصطلاح" من افتعال وزنا، و وزن افتعال يحمل في دلالته معنى تدخل الإنسان و مهاراته العقلية في الفعل (لهاوني، 1996، ص19).

لذا فقد عرف الجرجاني (ت816هـ/1413م) الإصطلاح: "عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأول" (التعريفات، ص29)، و اختلف الباحثون إذا ما كان لفظ "مصطلح" و "اصطلاح" بنفس المعنى، في حين ذهب آخرون إلى القول أنهما وجهان لعملة واحدة.

هذا وقد شاع توظيف لفظ "مصطلح" في اصطلاحات مؤرخي و لغويي العصر الوسيط فعنون ابن فضل العمري مؤلفه ب" التعريف بالمصطلح الشريف" (مطبعة العاصمة ، 1312) ، و من جهته وظف العلامة ابن خلدون (ت808 هـ/1406م) اللفظ في مقدمته في حوالي ثمانية مواضع نذكر منها :

- "و هو أن تحسب الحروف التي في اسم أحدهما بحساب الجمل المصطلح عليه في حروف أبجد من الواحد إلى ألف" (ابن خلدون ، 2001، ص142).

- " على حسب مصطلح الدولة و ما قرره أولوها" (ابن خلدون ، 2001، ص302).

- "ثم إن المتأخرين من الكتاب اصطالحوا على وصل كلمات، بعضها ببعض، وحذف حُرُوف معروفة عندهم ، لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم و فَتَسْتَعْجِم على غيرهم" (ابن خلدون ، 2001، ص351).

- " الفصل الواحد و الخمسون في تفسير الذوق في مصطلح أهل البيان و تحقيق معناه و بيان أنه لا يحصل للمستعربين من العجم" (ابن خلدون ، 2001، ص755) ، و ألف الكشاني(عبد العال شاهين، 1992) (ت 730 هـ تقريباً/ 1329 م)معجم اصطلاحات الصوفية جمع فيه المصطلحات المتداولة في عرف الصوفية مع بيان دلالتها.

كما وعمد التَّهَاوني (كان حيًّا 1185هـ/1745م) إلى اعتماد لفظ مصطلح و اصطلاح في كتابه المشهور "كشَّاف اصطلاحات الفنون و العلوم" (راجع مثلاً ج 2 ، ص / 1478).

و ما يجب التنبيه إليه أن " المصطلح لا يُسَمَّى مُصْطَلَحًا إلا إذا كان له مفهوم عرفي يدركه أبناء العلم أو القبيل الواحد فإذا لم يكن للمصطلح مدلول يشترك في إدراكه و تصوره أبناء الطائفة الخاصة ، أو العلم الواحد ، فإنه لا يرقى إلى مستوى المصطلح.

- المفهوم :

- لغة :

فَهَيْمَةٌ فِهْمًا: أحسن تصوره و جاد استعداد الذهن للإستنباط، ج أفهام و فُهوم. و المُفْهُوم: مجموع الصفات و الخصائص الموضحة لمعنى كلي(مجمع اللغة العربية . 2004، ص704) .

- اصطلاحا :

عرفه أحد الباحثين: " تصور عقلي مجرد في شكل رمز أو كلمة أو جملة ، يستخدم للدلالة على شيء أو موضوع أو ظاهرة معينة، يمكنه من فهمها أو القدرة على تفسيرها و توظيفها في مواقف جديدة ، و يتكون المفهوم من جزأين الإسم أو الرمز و دلالته اللفظية" (منصور مصطفى ، 2014، ص91) ، و أضاف آخر هو " ما يمكن تصوره ، و هو عند المنطقيين ،

ما حصل في العقل سواء أحصل فيه بالقوة، أم بالفعل، والمفهوم والمعنى متحدان بالذات ، فإنّ كلا منها هو الصورة الحاصلة في العقل أو عنده ، وهما مختلفان باعتبار القصد و الحصول " (جميل صليبا ، 1982، ص 404).

- العامة :

(أ) لغة :

العامة خلاف الخاصة، سُميت بذلك لأنها تُعْمُ بالشر وهذا ما ذهب إليه أبو بكر الرازي (ت 660هـ/ 1261م) (مُختار الصحاح ، 1986، ص 191)، وابن منظور (ت 711 هـ/ 1311م) ((باب عمم)، ج 35 ، ص 3112)، ج عوام و جاء القوم عامة: أي جميعاً (المعجم الوسيط ، (باب عمّ)، ص / 629).

ب) اصطلاحاً:

قيل: "سواد الناس الذين لم يكونوا يتمتعون بأي سلطة ، و الذين كانوا يعملون في شتى حقول الكسب ، و أنهم يعيشون في عالم خاص له أبعاده الفكرية و الدينية التي تتدنى عن مستوى عالم الخاصة ، كما يمكننا في ضوء هذا حصرها في ثلاث فئات أساسية ، هي الرقيق ، و أهل الذمة ، و سائر أصناف الكسبة " (فهبي سعد ، 1993، ص 140). و ذهب آخرون إلى اعتبار العامة من كانت تسعى من أجل لقمة العيش و حصرها في الفلاحين و الصناع و الجنود و العاطلين عن العمل و صغار الباعة و أصحاب المهن ، و هناك من جعل السلطة هي المعيار للإختلاف بين الخاصة و العامة ، فالخاصة هم الخلفاء و الأمراء و الوزراء بخلاف الخاصة (بدري محمد فهد ، 1967 م ، ص 150). و ما يمكن الخروج به أن "مصطلح العامة"، في مفهومه اللغوي و الإصلاحي اتَّفَق أنه خلاف الخاصة ، غير أنه هناك عدم اتفاق في ضبط الفئات التي تندرج ضمنها من عدمها.

ثانياً : مصطلح العامة من خلال نماذج مُختارة من مصادر المرحلة (تطور المصطلح الواحد مع تطور الدلالة).

ممّا ليس فيه شك أن لغة الضاد و هي لغة القرآن الحكيم لها خصائصها البارزة التي تميّزها عن غيرها من اللّغات فثرائها الواسع يحكي تجربتها في تواصلها مع الآخر، و انفتاحها على ثقافته و اصطلاحاته ، لذا عبر الكثير من الباحثين العرب و المستشرقين عن اعجابهم باللغة العربية أشد اعجاب فقال المتشرق " نولدكه": "إنّا لیتملکنا الإعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم، إذ ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية و شؤونها، و توحّد مناظر بلادهم، و أطراؤها اطراداً يدعو إلى السّامة والملل.... و هذا يستتبع حتماً ضيق دائرة التفكير ، و لكنهم في داخل هذه الدائرة الضيقة ، وضعوا لكل تغيير و إن قلّ ، كلمة تدلّ عليه ... " (محمد بن عبد العزيز بنعبد الله، 1996، ص 65) ، و اللغة العربية في تنقلاتها عبر

العصور التاريخية تتشعب كما تتغير ، فما كان في عصر يدّل على معنى قد يخالفه في العصر الذي يأتي بعده ، كما قد يندثر فلا نَعُود نسمع له صدّى في مؤلفات السلف و كتابتهم.

إن هذا التَّشَعُّب الذي يُمكن أن يحمله اللفظ الواحد في دلالاته و تجلّيات مفهومه ، بل و في استمراريته و تحوره ، و انكماشه من حيث الدلالة عبر العصور التاريخية ، يخلق مشكلاً حقيقياً للباحث على شتى الأصعدة البحثية ، و عبر أحدهم عن هذا الإشكال فقال: "و المُلَفَّت للنظر أنّ للفظ الواحد و المصطلح الواحد أحياناً عدّة مفاهيم و كثرة من المعاني، حتى تكاد اللفظة الواحدة تضج في تشعب دلالتها، و هذا الأمر يسري في معظم اللّغات و بحسب اختصاص كل علم وفن و تباين حقله عن الآخر، إلّا أن دراسة معمقة في علم الدلالات، تكشف عن ذلك الخيط المشترك بين الدلالات، فتفتح الأفق أمام ناطقها المحلّل و الإناسي و اللّغوي لدراسة واسعة لطبع العربية وذهن ناطقها و طبيعة تاريخ العلم و كيفية صدوره" (التهاوني، 1996، ص11).

و المؤرخ هو الآخر كثيراً ما يصطدم بهذا الإشكال المصطلحاتي الذي يملأ بطون أمهات المتون المصدرية ، و يبقى حائراً في ضبط معناها وتحديد مخرجاتها، ذلك أن زيغها في ضبطها على الوجه الصحيح يقود دونما شك إلى طُرُوحات خاطئة، على أن أصحاب هؤلاء المتون في حدّ ذاتهم قد انتهوا لهذه العلة فقال ابن تيمّة (محمد رشاد سالم، 1991، ص299) (ت 691 هـ / 751 م) "فمن تكلم بلفظ يحتمل معاني، لم يُقبل قوله و لم يُرد، حتّى نستفسره و نستفصله، حتّى يتبين المعنى المراد و يبقى الكلام في المعاني العقلية، لا في المنازعات اللفظية ، فقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهته اشتراك الأسماء".

من هذا المنطلق أردنا الوقوف عند أحد المصطلحات التي لا تفتأ مصادر المرحلة الوسيطة للمغرب الإسلامي تذكرها في كثير من المواضع ، و بمصطلحات شتى قد يعجز الباحث المؤرخ عن استيعابها و الإلمام بمقاصدها ، ألا و هو مصطلح "العامة" ، الذي شاع عند كثير من الباحثين في حقل التاريخ أنه يُقصد به الطبقة العامة و هي خلاف الخاصة كما دلت على ذلك المعاجم اللغوية في تفسيراتها لها.

على أن تتبعنا للمصطلح من خلال جملة من مصادر المرحلة الوسيطة للمغرب الإسلامي قد أثبت لنا مدى ارتباط هذا المعنى و قصوره في مقصده الحقيقي في كثير من الأحيان ، فإذا بدأنا بالمعاجم اللّغوية نجدها تتناقضها دون أن تختلف فيها على أنها خلاف الخاصة ، لكن الإشارة التي جعلتنا نتنبه لمدى تشعب معنى هذا المصطلح في مصادر المرحلة هو نص أورده الجاحظ (ت255هـ/868م) قائلاً: "فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيّقاً عذباً و فخماً سهلاً ، و يكون معنك ظاهراً مكشوقاً ، و قريباً معروفاً ، إمّا عند الخاصة إن كنت للخاصّة قصّدت ، و إمّا عند العامّة إن كنت للعامّة أردت ، و المعنى ليس يُشرف بأن يكون من معاني الخاصّة ، و ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامّة ، و إنما مدارُ

الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ، و ما يجب لكل مقامٍ من المقال وكذلك اللَّفظ العامي و الخاصي، وإذا سمعتموني أذكر العوامَ فيني لستُ أعني الفلاحين و الحُشوة ، و الصُّناع و الباعة، و لستُ أعني أيضا الأكراد في الجبال، و سكان الجزائر في البحار و أما العوام من أهل ملتنا و دعوتنا و لغتنا و أدبنا و أخلاقنا، فالطبقة التي عقولُها و أخلاقُها فوق تلك الأمم، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منها، على أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضا " (البيان و التبيان ، ص 136-137).

فالجاحظ فسر لنا هاهنا مقصده من لفظ العوام و بين أنه لم يُرد بهم الطبقة العامة ، بل هم مثقفون ليسوا من العامة ، على أنهم لم يبلغوا طبقة الخاصة، ذلك أن الشائع المتعارف عليه في عصره أن مصطلح العوام يعبر عن الطبقة العامة أيضا و هذا نطقت به جل مصادر المرحلة .

ولم يقتصر إيراد هذا المعنى عند الجاحظ فالزبيدي (لحن العوام ، 2000، ص 62) الأندلسي (ت 379هـ / 868م) أيضا في القرن الرابع وقف عند هذا المعنى لكن بتوظيفه لمصطلح "العامة" في حد ذاته "ثم نظرت في المستعمل من الكلام في زماننا و بأفقنا فألفيت جملا لم يذكرها أبو حاتم و لا غيره من اللغويين فيما نَبَّهوا إليه و دَلَّوا عليه مما قد أفسدته العامة عندنا فأحالوا لفظه أو وضعوه في غير موضعه، و تابعهم على ذلك أكثر الخاصة الخاصة، حتَّى ضمنت الشعراء أشعارهم، و استعمله جَلَّةُ الكتاب و عليَّةُ الخدمة في رسائلهم ، و تلاقوا به في محافلهم فرأيت أن أنبه عليه، وأبين وجه الصواب فيه وأن أفرد لما يحضرني منه كتابا أحضره به، وأجمعه فيه، وندعُ اجتلاب ما أفسده دَهْمَاءُ العامة وسقاطهم مما عسى أن لا يعزُب، عَمَّنْ تمسَّك بطرف الفهم إذ لو استوعبنا ذلك لَطال الكتاب به، و إنما نذكر منه ما يُتَوَقَّع الغلط من الخاصة فيه ، نحو ما رأيتُ لبعض الكُتَّاب، الذين أدركوا بانتحالهم علم الكتابة أشرف الخِطَط العليَّة، وعلَّق عبد العزيز الأهواني (مجلة معهد المخطوطات العربية ، 1957، ص 163) على ذلك قائلاً: "و هذا كلام واضح صريح يعرف منه أن العامة الذين أرادهم الزبيدي ليسوا الدَّهْمَاء و السقاط أو ليسوا رجل (رجل الشارع) في اصطلاحنا الحديث، و إنما هم المثقفون الذين تسربت إليهم أخطاء من هؤلاء الدَّهْمَاء أو من تصحيفات النُّسَخ و من بين هؤلاء الشعراء و الكتاب".

انطلاقاً ممَّا أدلى به الجاحظ و الزبيدي عُدنا إلى جملة من المتون المصدريّة لتتبع المصطلح في محاولة لرصد اشارات مصدريّة يمكن أن تُطلعنا على مخرجات مفاهيمية جديدة لمصطلح العامة، فلجأنا إلى تصفح جملة من مصادر المرحلة:

- ابن الصغير (ت 3هـ / 9م):

أورد ابن الصغير عديد الإشارات عن مصطلح العامة بعضها مبهم على عادة المتون المصدريّة في استخدام المترادفات من المصطلحات ففي موت ابن عرفة قال: "حتى أتوا به مدينة تاهرت فابتدر إليه العامة والخاصة والنساء والصبيان و لحق الناس الجزع" (أخبار الأئمة الرستميّين، ص68)، فالمتفحص لهذا القول يجد رغم إيراد مصطلح العامة والخاصة ألحق أيضا النساء والصبيان كأنهم طبقة لوحدها وأضاف مصطلح "الناس"، مما يجعل الباحث المؤرخ في حيرة من مقصد صاحب المصدر بدقّة، وفي موضع آخر كان صريحا في اصطلاح "الناس" فقال في الإمام أبي اليقظان: "ورأيت يومًا ثانيا في مصلى الجنائز وقد رميت له وسادة من آدام فجلس عليها ينتظر فراغ دفن رجل مات من وجوه الناس" (أخبار الأئمة الرستميّين، ص89)، وفي قوله "من وجوه الناس" يتضح أنه من الخاصة، ما يقودنا أن مصطلح "الناس" لا يقصد منه العامة دائما بل يمكن أن يُفهم من السياق المعنى وقد لا يُفهم.

في نص آخر من مؤلفه نراه يعود مرة أخرى في ذكر الحديث عن مصطلح العامة لكن بمصطلح آخر ومعنى غير واضح تماما: "لما مات أبو اليقظان قام العوام وأهل الحرف ومن لف لفهم" (أخبار الأئمة الرستميّين، ص89)، فالواقف على قوله يجد أنه علاوة على توظيفه لمصطلح "العوام" وأضاف أهل الحرف، فيخيل للقارئ أن العوام وأهل الحرف طبقة قائمة بذاتها في فكر ابن الصغير عن العامة وزاد على قوله ومن لف لفهم دون توضيح من قصدهم بقوله، مما يجعل ضبطنا لمقصده ولطبقة العامة ومن يدور في فلكها في غاية الصعوبة بما كان.

وفي إشارة أخرى له يظهر أن "العوام" لم يُرد به الطبقة العامة تحديداً، بل على الأرجح فئة منها تتمتع بصلاحيات واسعة عند الإمام من ذلك قوله: "وكان أبو حاتم هذا فتى شاباً وكان يجمع الفتيان إلى نفسه فيطعم ويكسي... لم يحضر المصلى مع الناس حملته العوام على درقة ونادت بطاعته" (أخبار الأئمة الرستميّين، ص89)، وأيضاً قوله في أبي حاتم: "وذلك أن أباه لما مات اجتمعت العوام والفرسان دون القبائل فنادوا لا طاعة لأحد إلا أبي حاتم" (أخبار الأئمة الرستميّين، ص91)، وفي موضع آخر في إمامة أبي حاتم "فلما كمل أمره وتمت بيعته خلت به عشيرته وإخوانه وأعمامه و بنو أعمامه فأحبوا أن يجعلوا له حجاباً وهيبة، وأبت العوام من ذلك وأرادت الدنو إليه في كل الأوقات على ما كانت تعرف قبل إمارته" (أخبار الأئمة الرستميّين، ص92).

من جمعنا لهاته النصوص المصدريّة الثلاث يتضح أن العوام التي أوردها ابن الصغير، لا يقصد بها الطبقة العامّة من المجتمع، بل نعتقد أنه قصد بها جماعة "الفتيان" التي كانت تتقرب بقربه قبل إمامته لذا أنفت غير ذلك بعدها، وكانت تتمتع بإمتيازات عنده، ممّا يُحيلنا للقول أن لفظ العوام لا تحمل دائماً مفهومها المتعارف عليه وهو العامة، بل قد تتضمن مفاهيم أخرى غيرها.

- ابن أبي زكريا (ت471هـ/1073م):

عثرنا بين ثناياه على جملة من الإشارات المصدرية التي أعطت لمصطلح العامة أبعاد مضافة لما تحمله من مفاهيم، و من ذلك عندما خرج يزيد بن فندين وأصحابه عن الإمام عبد الوهاب (171-208 هـ/787-823م) فعبر ابن أبي زكريا عن ذلك قائلاً "فكثر القول والقييل في البلد، ويقولون أنه حابا بعض الناس علينا... و كان مما يقوله للجبهة من الناس أنه لا يجوز تولية رجل إذا كان في جماعة المسلمين من هو أعلم منه" (سير الأئمة وأخبارهم، 1982، ص89)، فإذا ما فهم من قوله أن الناس هم العامة فإنه يوجد منهم مثقفون ومتعلمون لذا لم يشمل كل الناس بالجهل، كما يمكن أن يفهم أنهم أراد به الخاصة منهم، ذلك أن يزيد بن فندين ثار ضد الإمام عبد الوهاب لإيثاره بعض الأشخاص بمناصب السلطوية وهم خاصة لا عامة، رغم أنه يصعب في فترة أول دولة مستقلة عن الخلافة بالمشرق، وضع خط فاصل و واضح بين الطبقة الخاصة مقابل العامة خصوصاً في بداية نشأتها، فالوافد القادم من المشرق بالمساعدات لم يميز دار الإمام عبد الرحمان عن غيرها من البيوت لبطاطتها.

و في نص آخر له يوجد ما يشد عطف هذه الرؤيا ففي المناظرة التي تمت بين المهدي والفتي المعتزلي قال: "ثم إنهما جرت بينهما وجوه من المناظرة والناس يعلمون ما يقولان فلم يفلح أحدهما على صاحبه، ثم إنهما دخلا في فنون العلم فخفي ذلك عن حضرهما" (سير الأئمة وأخبارهم، 1982، ص108)، فإذا ما أراد بالناس العامة فلا شك أنهم على قدر من العلم وإلا كيف فهموا ما جري بين أبي العباس والفتي الموصلي، لكن ثقافتهم محدودة وما أورده بعد ذلك يشرح ما قبله "ثم إنهما دخلا في فنون العلم فخفي ذلك عن حضرهما"، وإذا ما أخذنا ما أفادنا به ابن أبي زكريا فيكون ما أورده الجاحظ والزبيدي وارد أيضا في الدولة الرستميّة، وقول ابن زكريا في موضع آخر من كتابه يؤكد هذا الطرح و يبين أن العامة لم تكن كلها يعمها الجهل و عدم الدراية، كقوله: "فلما توفي السمع... فانتشرت العامة من الناس ممن ليس له علم في الدين ولا تمييز الأمور المسلمين" (سير الأئمة وأخبارهم، 1982، ص119)، فهنا كان واضحا في قوله و مقصده، كما أن الجاهل في طروحاتهم هو من لا يفقه الدين و تشريعاته وهذا ما ذهب إليه الدرجيني (ت670هـ/1312م) أيضا في قول له عند وفاة السمع ابن أبي الخطاب عبد الأعلى عاملاً للإمام عبد الوهاب على نفوسة: "فلما توفي عظم مصابه و بلغ في الناس مبلغاً عظيماً، و خلف ولداً اسمه "فلشدة محبة الناس في السمع وعظم منزلته فيهم أحسنت العامة الظن بخلف و أراد من ليست له بصيرة في الدين ولا نظر في العواقب توليته عليهم، فقال أهل البصائر: لا ينبغي لكم أن تفتاتوا على إمامكم في شيء ممّا قلده الله من صالح جمهوركم، فقال ذوو العقول القاصرة" أما إن فعلنا ذلك رجونا أن يكون وفق إرادة أماننا" (طبقات المشايخ بالمغرب، ص68).

و يظهر من قراءتنا للنص المصدري ، أنه بالإضافة إلى تأكيد ما قدمه ابن أبي زكريا ، وظف الدرجيني مصطلح " الناس " ، كأنه غير مصطلح " العامة " وهو ما يُفهم من قوله حسب رأينا ، كما أفدنا باصطلاح جديد هو " الجمهور " و الذي سنرصده فيما بعد في اصطلاحات المضان المصدريّة الآتية.

و عموماً فالمصادر الإباضية لفتتنا إليها صفة مُبرزة ، أنها لم تلجأ إلى التقليل من شأن هذه الطبقة أو القدح فيها بالأوصاف الشنيعة ، رغم أن ساكنتها كانوا من طوائف شتى ، ما عدا في المواضع التي لفتتنا الإنتباه إليها ، و قد رافقتها السمعة السيئة - أي العامّة - بداية من القرن (3هـ/9 م)، ونعوز ذلك لا شك خصوصاً للاختلاف المذهبي بين السلطة السياسية ذات المذهب الشيعي و الرعيّة ذات المذهبي المالكي فنوعتها بأرذل ما يمكن أن يُقال، و بقيت تلك المثالب لصيقة لها طوال الفترة الوسيطة .

- المراكشي (ت 647هـ/1346م) :

في مؤلفه المعجب، أطلعنا المراكشي على نص مهم ، فعند حديثه عن دعوة أبي يوسف إلى الأخذ بالكتاب و السنة قال: "فجمعوا ما أمرهم بجمعه فكان يُمليه بنفسه على الناس و يأخذهم بحفظه، وانتشر هذا المجموع في جميع بلاد المغرب وحفظه الناس من العوام و الخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل و السني من الكسا و الأموال " (المراكشي عبد الواحد، ص 355).

إذا ما قرأنا النص الذي أوردع بعين ناقدة ، سنخرج بتخمينات عدة منها :

- إذا ما قصد بالناس العامة ، فالأكيد أن العامة لم تكن جلّها تتقن القراءة و الكتابة .

- و في قوله: "وحفظه الناس من العوام و الخاصة"، فلاشك أن من حفظه كان يملك ولو مستوى بسيطاً من العلم ، أما إذا أراد به الطبقة المثقفة من العامة و اصطلاح عليهم " العوام " على نحو ما أدلى به الجاحظ ، فهذا يصح أيضاً.

لكن كان قد أورد في موضع قبل ذلك مصطلح " العوام " ، لكن قصد به العامة في حدّ ذاتها على الأرجح، و أشار إلى ذلك عند حديثه عن ابن تومرت " و لم يزل مقيماً بتلمسان ... فخرج قاصداً مدينة فاس ... و كان أهل المغرب — على ما ذكرنا — ينافرون هذه العلوم فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والي البلد بإخراجه لئلا يفسد عقول العوام فأمره والي البلد بالخروج " (المراكشي عبد الواحد، ص 251).

و يمكن القول أن توظيف المراكشي للفظ العوام يحمل معنيين العوام أي الطبقة العامية ، وأيضا الطبقة المثقفة وهي التي تتوسط العامة و الخاصة في اعتقادنا، و كان لها حضوراً في مجتمع العصر الوسيط و دليلنا في ذلك قول الجاحظ " و من العدل أن يعطي الملك كل أحد قسطه و كل طبقة حقّها ، و أن تكون شريعة العدل في أخلاقه كشرعية ما يُقتدى به من الفرائض و النوافل التي يجب رعايتها و المثابرة على التمسك بها ، و إيناس الناس في بسط أيديهم في الطعام حتّى

يسوى بين الملوك و النمط الأوسط و العامة " (موسوعة شريطية، ص5) ، و أشار إليهم ابن عاصم (حدثق الأذاهر في مستحسن الأجوبة و المضحكات و الحكم و الأمثال و الحكايات و النوادر، 2014، ص254) بلفظ "الوسط من الناس".
- أبو حمو موسى الزباني (ت791هـ / 1388م):

في وصايا أبو حمو لابنه لتسير شؤون حكمه قدّم له عُصارة الشخص المجرب و الخبير، من مُنطلق أنه كان سلطان تلمسان لفترة امتدّت من (760-791هـ / 1359-1389م)، فنراه ينحو إلى توظيف مصطلح الجمهور مقابل الخاصة في أكثر من موضع كقوله: "و يصلح أمورهم و يحوط خاصتهم و جمهورهم" (واسطة السلوك في سياسة الملوك 1279هـ، ص27)، فيُفهم من قوله أنه قصد بالجمهور " العامة"، ولكن نجده في موضع آخر يُحدّثنا عن مجلس يوم الجمعة الذي خصّصة للفصل في شؤون الرعية " و يحضر الفقهاء في مجلسك حين الفصل بين النَّاس ...و هذا المجلس في هذا اليوم المذكور، مخصوص بالرّعية وبالجمهور" (واسطة السلوك في سياسة الملوك، 1279هـ، ص84)، فإن كان الرعية هم العامة ، فماذا قصد باصطلاح الجمهور؟، ولماذا لجأ في الموضع السابق إلى جعل الخاصة، مقابل الجمهور؟ و الذي يفهم من سياق كلامه أنهم أراد بهم العامة ، أم أن هذا المجلس مخصص للعامة و الخاصة للبحث في قضاياهم؟؟.
في حقيقة الأمر لا نجد تبريراً مقنعاً سوى أن أصحاب هذه المصادر قد يكون مقصودها من مصطلح الواحد مفاهيم شتّى، حسب ما يتمثله مؤلفوها ، أو أنه لا يهتم بتوضيح المصطلح سواء إن كان من باب الترادف أو قصد به مفهوماً محدداً ، بقدر ما يهتم بتبليغ الخبر و إقراره ، و إحداث السجع حتى يحسن اللفظ و تطرب له الأذن، و يُظهر مدى تطلع صاحبه، وقد يكون متعارف عندهم ما يقوده إليه ذلك المصطلح من مفاهيم فلم يرَ حاجة لشرحه بإزالة الإبهام و إجلاء مقصده بدقّة ، فما يدريه أننا سنقرأ له يوماً نحن و لا غيرنا ، فستغرب قوله، و إيراده لجملة من المترادفات، و التي نفهم منها على أنها تدلّ على نفس مفهوم ذلك الإصطلاح ، أو أنها مجرد عادة اعتاد أصحاب المتون المصدريّة ايردها على ذلك النحو. لذا يمكن القول أن العديد من المصطلحات تتقمص روح عصرها، و قد تُصبح مجهولة ملتبسة في عصر آخر.
و ممّا هو أكيد أن السلطان الزباني كان حريصاً على الطبقية و إنزال النَّاس على قدر قدرهم ، فمن ذلك قوله: "اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تنزل النَّاس منازلهم و ترتيبهم في مراتبهم بحسب أقدراهم عندك و مناصبهم و ذلك على طبقات
""(واسطة السلوك في سياسة الملوك، 1279هـ، ص81)

في موضع آخر من مؤلفه نقرأ مصطلح أضافه لمصطلح العامة فقال: "و أمّا العامة و الدّهماء فتسلك بهم طريقة واحدة ، يقفون عندها و لا يتعدون حدّها"" (واسطة السلوك في سياسة الملوك، 1279هـ، ص87) ، الظاهر أن العامة و الدّهماء في اصطلاحه تنطوي على مفهوم واحد ، كما أنه عرّف ابنه أن الرعية التي يحكمها ثلاثة أصناف و حتّاه أن

يسوسهم بثلاث سياسات: "صنف من أهل العقل و الديانة و الفضل يعلمون فضل الملك و طول عناية و يرثون له من ثقل أعبائه ، فسياسة هؤلاء تحصل بالبشر عند لقاءهم ، و استماع أحاديثهم و حسن الإصغاء إليهم ، و صنف فيهم خير و شر فسياسة هؤلاء تحصل بالترغيب و صنف هم السفلة الرعاع أتباع كل داع ، فسياسة هؤلاء بإخافة غير مقنطة و عقوبة غير مفرطة " (واسطة السلوك في سياسة الملوك، 1279هـ، ص112).

فالظاهر أن الصنف الأول من العامة يلقي استحسان السلاطين الشيء الكثير، وعلى الأغلب أنها الطبقة الوسطى من المجتمع ، فهل يمكن القول أنهم هم من قصدهم الجاحظ و الزبيدي بالقول ، ومن أشار إليهم ابن أبي زكريا ، و ابن الصغير ؟ ، لا نستطيع أن نقدم حكماً جازماً بذلك ، لكن الصنف الأول تتوفر فيهم الكثير من الصفات الفاضلة حسبهم كالعقل و الدين و العلم ، و ربما هم المقصدون أحيانا عند ذكر العامة في معرض مجلس علمي أو تبجيل و ليس جلهم. لكن العامة من المجتمع تحضر غالبا في معرض القدر فلطالما كانت مصدر الفساد و مجبولة على الشر و الهرج و المرج في نظرهم" (واسطة السلوك في سياسة الملوك، 1279هـ، ص89).

- ابن خلدون : (ت 808 هـ / 1406 م):

لجأ صاحب المقدمة هو الآخر إلى اعتماد مصطلحات عصره ، فنجده كان صريحا في ايراد لمصطلح العامة في بعض المرات ، من ذلك قوله: "ما يقضي منه المعجب حتى أن كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون من الثقل إلى مصر لذلك و لما يبلغهم من شأن الرفق بمصر أعظم من غيرها ، و يعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة الآفاق على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم" (ابن خلدون، 2001، ص452)

فيما أفادنا به ابن خلدون في هذا النص كان صريحا أن المقصود بهم تحديدا الطبقة العامة ، وما قدم به في قوله " كثيراً من الفقراء بالمغرب" ، يضيفي لها مزيدا من الفهم . و في موضع آخر من المقدمة نجده يقول: "و لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس و أخذ به الجمهور . لسلاسته و تنميق كلامه و ترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله " (ابن خلدون، 2001، ص825) .

لا يخامرنا شك أن ابن خلدون قصد بالجمهور الخاصة من المجتمع ، أما قوله "نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله" ، فالراجح أنهم المثقفون منهم ، ذلك أن فن التوشيح نظم باللغة الفصيحة ، ما عدا الخرجة و هي القفل الأخير من البيت نُظمت بالأعجمية و بالبربرية وبالعامية (محمد عباسة، 2009، ص11) ، و حتى الرجل الذي نُظم بلغة عامية خالصة ، لم يكن صادرا من الطبقة العامة من المجتمع ، وقد تفتن أحدهم عند حديثه عنه أن يُشير أنه صادر عن الطبقة المثقفة من العامة فقال: "غير أنه لا يمكن الاعتقاد أن شعراء من العامة لما عجزوا عن نظم الموشح نظموا فنا

آخر بعامية أهل الأندلس وسمّوه الزجل ، لأن الذين أنشأوا الزجل لأول مرة هم المثقفون الذين كانوا ينظمون القصائد الفصيحة و الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى و ليس العامة " (محمد عباسة ، 2009، ص14).

فإذا كان الزجل العامي في ألفاظه من صنع الطبقة المثقفة من العامة ، فالراجح أن العامة الذين نسجوا على منوال أهل الأندلس من أهل الأمصار في نظم الموشح هم نفس هذه الطبقة من العامة .

و استند أحيانا في تقرير أحكامه إلى ما قالت به العامة "و هذا المعنى ما تقوله العامة ، من أن اللغة للعرب بالطبع أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم و لم يأخذوها من غيرهم " (محمد عباسة ، 2009، ص765) ، و لا نكاد نجزم أن العامة كطبقة هم من قصدهم بالقول، بل لاشك أنهم العامة الذين أشار إليهم الزبيدي، و الطبقة الأولى من العامة التي ذكرها السلطان أبو حمو الزياتي.

في حديثه عن علم التاريخ قال: "و ما استكبر القدماء علم التاريخ إلا لذلك حتى انتحل الطبري و البخاري و ابن إسحاق من قبلهما و أمثالهم من علماء الأمة و قد ذهل الكثير عن هذا السر فيه حتى صار انتحاله مجهلة و استخف به العوام و من لا رسوخ له في المعارف مطالعة و حمله و الخوض فيه و التطفل عليه ، فاختلط المرعى بالهمل " (محمد عباسة ، 2009، ص37) ، يتجلى من قوله أن العوام الذين قصدهم على قدر لا بأس به من العلم ، و إلا كيف لهم الإطلاع على ما كتب في حقل التاريخ من كتب و يخوضون فيها، و الأقرب أنهم أهل ملّة الجاحظ من المثقفين الذين أشار إليهم و خصّهم بمقصد قوله ، كما أن الزبيدي أوضح في قوله ما تُفسده العامة عندهم من الألفاظ و وضعها في غير محلها ، و كان ذلك سبباً للأخطاء التي يقع فيها الشعراء و الكتاب.

كما عبرت مصادر المرحلة عن لفظة العامة بعدد الإصطلاحات و النعوت التي ألصقتها بها ، التي يُستشف أنها تحمل نفس مفهوم اصطلاح العامة، رغم أن "علماء اللغة ينكرون وجود الترادف الكامل على أساس أنه سيكون من العبث و الهدر أن يوجد في اللغة كلمتان مدلول واحد دون أي فرق بينهما، و يرى هؤلاء العلماء أنه لا بدّ من وجود فرق بين المترادفتين ولذلك يؤمن هذا الفريق من العلماء بالترادف الجزئي ، أي المماثلة في المعنى دون التطابق " (محمد علي الخولي 196، 2001).

ولجأنا إلى رصد هذه المصطلحات في الجدول الموالي :

التسمية	التدليل المصدري	المصدر / الصفحة
السفلة	" و قد يحدث التغلب لبعض السفلة من الغوغاء و الذهماء ".	ابن خلدون ، المقدمة ، (مرا سهيل زكار 201، ص / 474.
الذهماء ، الحشود ، الجموع ، الهبة .	" و ثارت بهم الذهماء من الحامية و الرعايا " . " فلم يمهل غاشي الهبة للتبث في شأنها " .	ابن خلدون ، العبر (مرا سهيل زكار ج7، 2000) ، 7 ، ص / 113-114 – 115.

	"وزحف إليها في العساكر والحشود من زناتة و العرب و البربر". "وحشد كافة أهل المغرب من المصامدة و الجموع و القبائل "بما جاءوا به من الجمهور...جمع الخاصة و العامة من بني عبد الواد و الخدام من أهل تلمسان و الحضر ، أولي المشورة و الشأن". "فتوحشوا من العامة العميا".
الجمهور ، العامة عميا ، الخدام.	مجهول ، زهر البستان ، ص / 81- 83 .
الغوغاء و السوقة ، الأغفال	"أما بعد فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم و الأجيال و تشدُّ إليه الركائب و الرحال و تَسْمُو إلى معرفته السُّوقَة و الأغفال". "فَقَرَعَت هذه الكلمة الشَّنْعَاء أَسْمَاعَ الغوغاء و صرَّ عليها بَعْضُ الطَّاعِنين أدْنَهُ".
الرعية	التنسي ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (تح محمود آغا بوعيد ، 2011) ، ص / 231.
الرعاع و الهمج	"إذا كان المعز...يومئذ يفعلُهُ و من دونه من الخاصة و سائر الناس خلا من يجهل حقَّه من الرعاع الذين لا يعقلون". "وأكثر الناس همج لا يحاسبون أنفسهم،ولا يزلون الأمور عندهم"
الحمير الجهال	المصدر نفسه ، ص / 396- 397.
أراذل العوام	عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص / 105.
الناس	ابن أبي زكريا ، سير الأئمة و أخبارهم ، ص / 87.
رعايا	الدرجيني ، طبقات المشايخ بالمغرب ، ج 1 ، ص / 87.
القماش	ابن منظور ، لسان العرب ، ص / 3738.
الأغمار	ابن خلدون ، المقدمة ، ص / 408.
الأوباش ، الأسقاط	ابن عاصم ، حقائق الأزهري ، ص / 254.
أخلاق	ابن أبي زكريا ، المصدر السابق ، ص / 185.

جدول رقم (01) : بعض اصطلاحات العامة في المتون المصدرية

ما يمكن أن نلاحظه من الجدول أن مؤرخي العصر الوسيط اصطلاحوا عديد المصطلحات التي اعتادوا التعبير عند حديثهم عن العامة ، و إن كان بعضها واضح كالسّمات الشنيعة التي ألصقوها بها ، فإن بعضها الآخر غير واضح تماما إلا من سياق الحديث ، و أحيانا يتعذر فهمها حتى إذا أمعنا في سياق الكلام كالناس و الجمهور و غيرها، مما يجعل الباحث المؤرخ في حرج من أمره في تقرير الحقائق، و ضبط الوقائع، بل إن سعيها للوقوف على مفاهيم هذه المصطلحات في أعرافهم، وجدناها مُتداخلة أشد التداخل بما كان، فغمار الناس هم الجمع و الكثرة، و الغوغاء هم السفلة، و هو ما

أفادنا به ابن سيدة الأندلسي (المخصّص، ص 127-128) (ت 458هـ/1065م) في فصل من مؤلفه جاء تحت عنوان "غمارة الناس ودهماؤهم"، و أضاف اصطلاحات أخرى للعامة كالغُثَاء من الناس، خَمَان الناس، تحُوت القوم، خُشارة الناس، بَوُغاء الناس، رَجْرَجَة الناس، مما يحدو بنا للقول أن هذا التعدد الكمي لإصلاح العامة و تداخل مفاهيمه يجعلنا أشد ارتباكاً و ضبطاً للحقائق، و يلقي لاشك بآثره على طروحات الكتابة التاريخية، و هو ما سنطرق بابيه في العنصر الموالي .

ثالثاً: أثر التطور المصطلحاتي و الدلالي للمفاهيم في الكتابة التاريخية.

إن تتبعنا لمصطلح العامة أفضنا بنا للقول ، أن الكثير من الطروحات التي يقدمها المؤرخ قد تكون بعيدة كل البعد عن الغرض الذي وضعه لها مؤلفها ، و مما ليس فيه شك أن لكل عصر و علم مصطلحاته الخاصة به ، و قد أدرك القلقشندي (ت 821هـ/1418م) ذلك فعبر عنه قائلاً: "على أن معرفة المصطلح هي اللازم المحتّم و المهمّ المقدّم لعموم الحاجة إليه و اقتصار القاصر عليه" (صبح الأعشى 1922، ص 7) ، و أكدّ التهاوني على ذلك "إنّ أكثر ما يحتاج به في تحصيل العلوم المدوّنة و الفنون المروّجة إلى الأساتذة هو اشتباه الإصطلاح فإن لكل علم اصطلاحاً خاصاً به ، إذا لم يُعلم بذلك لا يتيسر للشّارع فيه إلى الإهتداء سبيلاً و لا انقسامه دليلاً" (التهاوني، 1996، ص 36) .

فمصطلح العامة في اعتقادنا انطوى على دلالات شتّى غير المعنى المتعارف عليه، كما أن الإصطلاحات التي ضمنوها للدلالة على العامة ترد أحياناً كنوعيات لها أو كمترادفات متتابعة ، نعجز عن وضع حدّ فاصل بينها ، لكن كل منها كان في وقت ما في رأيها يتميز عن الآخر بشيء ما في دلالاته فلما أهملت الفروق نشأ الترادف بين ألفاظها ، وهو ما يطلق عليه "التطور الدلالي للغة" ، الذي يُمكن المؤرخ من ملاحقة المصطلحات قصد الوقوف على معانيها عبر عصور تاريخية مختلفة، ذلك أن الكشف عن أبعاد دلالة المصطلح كشف للحياة الإجتماعية و الحضارية لذلك المجتمع (ابراهيم أنيس، 1986، ص 101-124) .

كما الدّراسات التي طرقت باب موضوع العامة في دراستها التاريخية لم تشر هي الأخرى إلى ما يحمله معنى " العامة " من دلالات فضفاضة و غير واضحة في الكثير من أبعاده ، غير أن بدري محمد فهد لفت انتباهه مدلول العامة و الناس عند ابن دريد (ت 321هـ/933م) فعلّل ذلك: "يستعمل العامة مرة و الناس مرة أخرى يريد بهم الناس الذين يلحنون في لفظ الكلمات العربية أو يولّدون لفظاً لم يكن معروفاً لدى عرب الجزيرة" (ابراهيم أنيس، 1986، ص 15) .

و وقف بوتشيش عند هذه الإشكالية في إحدى دراساته الجادة قائلاً: "فالمؤرخ في العصور الوسطى سواء كان انتماءه مغربياً أو مشرقياً ، غالباً ما تعود على كتابة المصطلحات في سياق الخبر دون الإهتمام بتفسيرها أو شرحها لأن الحرص على الخبر و تتبعه كان هاجسه الأول ، و الأدهى من ذلك أنه كان يعرض أحياناً لمصطلحات مترادفة تُوحى بأنها تشير إلى

نفس المعنى ، في حين أنها تتخذ مفهوماً عند مؤرخ آخر ، لا بل لدى نفس المؤرخ حين يعرض لذات المصطلح في موضع آخر من كتابه "(الحاجة إلى معجم لمصطلحات التاريخ الإقتصادي ، 2000، ص185) ، و هو ما لمسناه حقا من تتبعنا لمصطلح "لعامة".

من جهته عكف ذات الباحث ، على تعقب إحدى المصطلحات ذات الطابع الإقتصادي وهو "مصطلح البركة" و لاحظ أنه لم يُستخدم فقط بمعناه الروحي في الفضاء الصوفي ، و إنما تم استعماله بمعناه المادي أي كمقدار من المال يوزع على الجيش قبل المعركة ، غير أنه دَل أيضا على مفهوم الهبة و العطاء ، و كذا المكافأة و الهدية (" الحاجة إلى معجم لمصطلحات التاريخ الإقتصادي ، 2000، ص187-188).

إن الفهم الخاطئ لدلالة المصطلح ، يقود بنا لا شك إلى طروحات تاريخية خاطئة أيضا ، وإذا ما حاولنا تلمس حلول لهذا الإشكال فإن ذلك يتأتى إلا ب:

■ فهم السياق الذي ورد فيه المصطلح، و الوقوف عنده مطولاً فقد يكون رُبُّطُه بما قبله أو بعده موضحاً للمصطلح في حدّ ذاته .

■ الرجوع إلى المعاجم اللغوية، و قد لا تأتي أكلها دائما ففي مصطلح العامة ، تناقله أصحابها دون إدخال مفاهيم جديدة له، فاتفقوا جهم أن "العامة خلاف الخاصة"، غير أن تصفحنا لإبن منظور في لسانه أفادنا أن القماش بمعنى أراذل الناس، غير أنه لم يشر لها في باب شرحه للفظ العامة في حدّ ذاتها ، لذا لا يشترط الوقوف على دلالات المصطلح في شرح المصطلح ذاته ، و أفادنا ابن سيده باصطلاحات للعامة ليس لها شيع كبير فيما تسنى لنا الوقوف عليه من متون مصدريّة تاريخية، و عقب أحد الدراسين لعلم الدلالة في هذا الشأن: "و هكذا نرى أن الرجوع إلى المعاجم القديمة لا يجدي كثيرا في بحث دلالة الألفاظ و تطور الدلالة. و من الواجب على الباحث في دلالة اللفظ العربي الرجوع إلى النصوص القديمة في الأدب العربي، و الإهتمام بهديها ، و دراسة الدلالة على ضوءها"" (ابراهيم أنيس ، 1986، ص251) .

■ أن تطور المصطلحات في مفاهيمها ظاهرة شائعة عبر العصور التاريخية ، فنجد لبعض المصطلحات حضوراً كبيراً في فترات تاريخية ، و قد تنكمش و تفتى فلا نعود نسمع بها في فترات لاحقة ، لذا وُجب على المؤرخ الباحث أخذ الأمر بعين الاعتبار ، فمصطلحات أصحاب المتون المصدريّة من مصطلحات عصرها لا عصرنا ، أو ربما عصر سابق لها.

- الخاتمة و نتائج البحث :

أمكننا من خلال دراستنا الموسومة ب: إشكالية تطور المصطلح الواحد مع تطور دلالة المفهوم بالمغرب الإسلامي في عصره الوسيط من خلال مجموعة مصادر مُختارة "مصطلح العامة أنموذجاً" الخروج بعدد من النتائج نبرزها فيما يلي :

- الإشكالية محور دراستنا لها حضور قوي في المتون المصدرية للمرحلة الوسيطة ، و التي تأتي من باب الترادف و الإصطلاح الشائع ، مما يخلق ارتباك واضح في استنباط الكثير من الحقائق التاريخية .
 - حمل مصطلح " العامة " دلالات عدّة علاوة على معناه المتعارف عليه ، أنه خلاف الخاصة كطبقة مثقفة كانت تخوض في العلوم و تحضر المجالس العلمية و تختلط مع الخاصة في كثير من مجالسها، لذا فقد وُصفت بالعقل و الديانة والفضل ، و وجدناها في مواضع أخرى فئة ذات نفوذ كبير في المجتمع كجماعة الفتيان التي كانت تقرب بقرب الإمام الرستمي و تحظى بسخائه.
 - الإصطلاحات التي أورها أصحاب المضان المصدرية للمرحلة المدروسة لمصطلح العامة جد فضفاضة و كثيرة، بل إن محاولتنا للإحاطة بشرحها قدتنا لمصطلحات نفسها في بعض الأحيان لكن بصيغة مختلفة كالغوغاء التي أورد ابن سيدة أنها بمعنى السفلة ، في حين كان مصطلح السفلة من المصطلحات التي نعتت بها العامة أيضا فتدأ أحيانا بصيغة "الغوغاء و السفلة" أي أن شرحها يقودنا إلى صيغة " السفلة السفلة " و هذا ما يجعلنا في حيرة من أمرنا.
 - أشار بوتشيش "(ابراهيم أنيس ، 1986، ص183) في دراسته التي عنوانها ب " الحاجة إلى معجم لمصطلحات التاريخ الإقتصادي " و ألح على فكرة إنشاء معجم من منطلق أنه "يعد حجر الزاوية في أي بحث علمي ، إذ من خلاله يتم تحديد مفاهيم المصطلحات و ضبطها ، و الكشف عن حمولاتها الدلالية ، توخيا للدقة ، و تجنباً للوقوع في مزالق اللبس
- و متاهات تشويش المفاهيم " ، و يتضح من المشروع الذي اقترحه أن هذا الطرح سيفيد المؤرخ منه كثيرا ، فيقتصر عليه الوقت ، و يضبط مصطلحات شتى ذات الصبغة الإقتصادية التي تحمل في طياتها مفاهيم مختلفة لمصطلح واحد ، غير أننا نمدد المشروع ليشمل حتى المصطلحات الإجتماعية كمصطلح " العامة " ، و الثقافية و حتى العسكرية كمصطلح " الكراع " مثلا الذي ألفيناه في بعض المواضع يدل على الخيل فقط ، في حين دل في مواضع أخرى على السلاح والخيول ، كما نقترح أن تتبنى أحد الجهات العلمية هذا المشروع كأن تخصص لها مجلة قائمة بحد ذاتها أو ركن من مجلة ، ثم تجمع أعدادها حتى لو على مدى بعيد بحسب الحقل الذي تدرسه (اجتماعي ، اقتصادي ، سياسي ، ثقافي) ، ثم تطبع في معاجم ، فيستفيد منها المؤرخين الباحثين و قد تكون سببا في تصحيح الكثير من الرؤى أيضا.
- تشكو العلوم الإنسانية و الإجتماعية عموما من إشكالية ضبط المصطلحات بما فيها التاريخ مما ينشأ عنه تضارب في تقرير الكثير من الحقائق ، و عدم الوقوف عنده سيلقي بتداعياته على صحة الكثير من الطروحات التاريخية.

الإحالات والهوامش:

1. (باب عمم) ، ج35 ، .
2. إبراهيم أنيس ، دلالة الألفاظ ، ط3 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1986 ، .
3. ابن خلدون ، المقدمة ، مرا سهيل زكار ، دار الفكر ، للطباعة و النشر و التوزيع ، لبنان ، 2001 ، .
4. ابن خلدون ، المقدمة ، د. ط ، مرا سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، 2001. 5. ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، ج2 ، تح عبد السلام هارون ، ج5. دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، دت. (باب ذل) ، .
6. ابن منظور ، دار المعارف ، القاهرة ، دت. (باب دل) ، ج15 ، .
7. أحمد مختار عمر ، علم الدلالة ، ط5 ، مكتبة لسان العرب ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1998.
8. أخبار الأئمة الرستمين ، تح و تع محمد ناصر ، إبراهيم بحاز ، د.د.ن ، دت. ، .
9. إدريس الطراح ، مفهوم المصطلح ، ضمن أعمال ندوة المصطلح في الآداب و العلوم الإنسانية ، في 9-10-11 مارس ، مكناس ، المغرب ، مطبعة فضالة ، 2000 ، .
10. ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللّخي في لحن العامة ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، مج3 ، ج1 ، 1957 ، .
11. بدري محمد فهد ، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري - بحث تاريخي في الحياة لجماهير بغداد - ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، 1967.
- م ، .
12. البيان و التبيان ، ج1 ، تح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دت. ، 13. التاج في أخلاق الملوك ، موسوعة شريطية ، د.ب.دت. ، .
14. تح محمود آغا بوعيد ، موقف للنشر ، الجزائر ، 2011.
15. التعريفات ، د.د.ن ، دت. ، .
16. التهاوني ، كشّاف اصطلاحات الفنون و العلوم ، تح علي دخروج ، ط1 ، ج1 ، مكتبة لئنان ناشرون ، لبنان ، 1996 .
17. ج7 ، مرا سهيل زكار ، دار الفكر ، لبنان ، 2000.
18. جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، د.ط ، ج2 ، دار الكتاب اللبناني ، لبنان ، 1982 ، .
19. الحاجة إلى معجم لمصطلحات التاريخ الإقتصادي ، في أعمال ندوة قضايا المصطلح في الآداب و العلوم الإنسانية ، في 9-10-11 مارس 2000 ، مكناس ، المغرب ، مطبعة فضالة ، دت. ، .
20. حديث الأزهري في مستحسن الأجوبة و المضحكات و الحكم و الأمثال و الحكايات و النوادر ، مطبعة دار الكتب و الوثائق القومية ، القاهرة ، 2014 ، .
21. درة تعارض العقل و النقل ، ط2 ، ج1 ، تح محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، 1991.
22. راجع مثلا ج2 ، ص/ 1478.
23. سير الأئمة و أخبارهم ، تح إسماعيل العربي ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، 1982 ، .
24. صبح الأعشى ، د.ط ، ج1 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1922 ، .
25. ط1 ، تح الحبيب الفقي و آخرون ، دار المنتظر ، لبنان ، 1996.
26. ط1 ، تح و تق و تع عبد العال شاهين ، دار المنار للطبع و النشر و التوزيع ، القاهرة ، 1992.
27. طبقات المشايخ بالمغرب ، د.ط ، ج1 ، تح إبراهيم طلاي ، مطبعة البحث ، الجزائر ، دت. ، 28. على الرغم من تحيزات و شطط الذي مارسه بعض المستشرقين في دراستهم للغة العربية ، إلا أن بعضهم اعترف ببلاغتها و ثرائها الدلالي ، راجع : محمد بن عبد العزيز بنعبد الله ، الماء في الفكر الإسلامي و الأدب العربي ، ج1 ، وزارة الأوقاف و الشؤون الدينية ، المملكة المغربية ، 1996 ، .
29. فتهي سَعد ، العامة في بغداد في القرنين الثالث و الرابع للهجرة - دراسة في التاريخ الإجتماعي - ، دار المنتخب العربي ، للدراسات و النشر و التوزيع ، لبنان ، 1993 ، .
30. لحن العوام ، ط2 ، تح رمضان عبد التّواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 2000 ، .
31. مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ط4 ، مكتبة الشروق الدولية ، 2004 ، د.ب. (باب فة) ، .
32. محمد عباسة ، اللّهجيات في الموشحات و الأجزاء الأندلسية . مجلة حوليات التراث ، ع 09 ، 2009 ، .
33. محمد علي الخولي ، علم الدلالة (عِلْمُ الْمَعْنَى) ، دار الفلاح للنشر و التوزيع ، الأردن ، 2001 ، 34. مُختار الصحاح ، مكتبة لبنان ، لبنان ، بيروت ، 1986 ، (باب عُنْدَلَب) ، .

- 35.المختص ، السفر 3 ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، د.ت.،
- 36.مرا سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، لبنان ، 2001.
- 37.المراكشي عبد الواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تح محمد سعيد عريان ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، الجمهورية العربية المتحدة ، د.ت.،
- 38.مطبعة العاصمة ، مصر ، 1312 .
- 39.المعجم الوسيط ، (باب عم) .،
- 40.منصور مصطفى ، أهمية المفاهيم العلمية في تدريس العلوم و صعوبة تعلمها، ع8 ، مجلة الدراسات و البحوث الإجتماعية ، جامعة الوادي ، سبتمبر ، 2014، .
- 41.نادية معاتقي ، إسهام الدارسين العرب المحدثين في إرساء أسس علم الدلالة ،رسالة ماجستير ، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو ، 2015.(و علم الدلالة علم حديث النشأة ، إلا أن لها جذور تاريخية مبكرة منذ القرن الثاني الهجري إلى سائر القرون التالية لها ،)
- 42.واسطة السلوك في سياسة الملوك، د.ط ، مطبعة الدولة التونسية ، 1279 ، .